التاريخ الطبيعي للعواطف الاجتماعية

بحث في الطفولة والتربية

للدكتور الفريد اطر الفسوي

نحن لا نستطيع ان نتصور الحياة النفسية الاّ مقرونة بالحركة والنشاط . لا يمكن ان نعزو للنبات نفساً لانهُ حرم الحركة . وهذا هو الفرق بين الحيوان والنبات . الحيوان يشعر بالالم فهو يفكر ولهُ عواطف . اما النبات فلا يمكن ان يعرف الالم لانهُ لايستطيع ان يتحرك ليتخلص منهُ فالحركة والنفس متلازمان . وحرية الحركة تغذي الحياة النفسية وتفسح في محيطها وتزيد من اختباراتها وتعمقها . واعترافنا بضرورة الحركة للحياة ليكون لها شعور وفكر وقدرة على تحمل الالم والتخلص منهُ يجعلنا بالضرورة نرى ان الحياة النفسية لا تكون ابداً حيث تكون الوحدة والانفراد . فلا بد من مجتمع لتتم فيهِ مظاهر الحياة النفسية

وفي المجتمع لا بد من الكفاح . فاسلحة النفس في هذا الكفاح هي كل وسيلة لضمان الطمأنينة واطراد الحياة . ومن هنا كانت الحياة النفسية تتطلب الاختلاط وان توجد على اكملها في المجتمع . وكل الاسلحة ناقصة في هذا الكفاح حتى النفس . ومعلوم أن قدم الانسان هي يد ناقصة . فهذه القدم للحيوان قد لا تعد سلاحاً ناقصاً ولكنها للانسان خير الاسلحة فعى النفس لا يكون الاّ نسبيًّا

واول ما يكتشف في الاتجاهات النفسية هو الميل الى غاية معيَّنة . وهنا يبدو تأثر الانسان من الوسط . فالغاية هي التي تسيطر على الحياة النفسية . وهذا اكبر ما يجب ان ينتبه لهُ في فهم الطبيعة الانسانية . فاذا عرفنا الغاية التي يتجه اليها الفرد استطعنا أن نفهم معنى العيشة التي يعيشها والوسائل التي يستخدمها كما نعرف الاتجاه الذي يتخذه الحجر عندما نتركه يسقط الى الارض وهذا مع أن النفس الانسانية لا تعرف قانوناً طبيعيًّا . وهنا تبدو مشكلة حرية الارادة . فاذا كانت الحياة لا بد متجهة الى غاية . وكانت الغاية هي التي تسيطر على النفس فاين حرية الارادة . ولكن اذا اراد مصور ان يرسم صورة فاستعداده لهذا العمل يمكن ان يعد اتجاهاً لتحقيق هذه الغاية وعليهِ فكل حركة في هذا السبيل تؤدي حتماً الى صنع الصورة كما لو كان هناك قانون طبيعي يدفع بهِ الى هذه الغاية . ولكن هل توجد ضرورة تقهره على تناول الريشة والبدء في الرسم ؟

وهناك فرق بين الحركة في الطبيعة والحركة في النفس الانسانية . ومسائل حرية الاختيار والارادة تدور على هذه المسألة . ويوجد رأي في هذه الايام يميل الى الاعتقاد بأن الانسان مسلوب الاختيار . صحيح ان الانسان يصبح مقيداً عندما يربط نفسه بغاية معينة وما دامت احوال الحياة من جهة نظام الكون والحياة الحيوانية والانظمة الاجتماعية كثيراً ماتحدد للانسان غايته وتدفعه اليها فلا يكون ثمت شيء من الغرابة ان تبدو الحياة النفسية كما لو كانت خاضعة لقوانين لا تنسخ. ولكن اذا وجد انسان ينكر — مثلاً — علاقته بالمجتمع ويحاول ان يتحرر من كل القيود الاجتماعية ويرفض ان يخضع لاعتبارات الحياة فكل كلام عن القوانين التي لا تنسخ لا معنى له . اذ يوجد قانون جديد هو وليد الغاية الجديدة التي يضعها هذا الانسان امامه ويعمل لتحقيقها . وكذلك قانون الحياة الاجتماعية لا يتناول نفوذه انساناً يجد نفسه في حيرة مستمرة ويحاول أن يخنق في نفسه الشعور بالالفة نحو الذين حوله ولهذا نؤكد ان الحركة في الحياة النفسية انما تكون عن ضرورة محتومة متى كانت الغاية وليدة الضرورة ايضاً وان لا سبيل الى تنقيحها او التساؤل عن قيمتها وصلاحيتها

ومعرفة الغاية ميسورة اذا راقبنا حياة الفرد . وهذا امر له شأن كبير جداً لان العدد الاعظم من الناس لا يعرفون الغاية التي تحركهم في الحياة. ولتوضيح هذه المسألة نتناول مثالاً من المشاهدات الاكلينيكية. جاءنا رجل في الثلاثين من عمره ذو اخلاق عدائية بشكل واضح جداً . كان هذا الرجل ناجحاً في حياته وقد اكتسب اسماً وشهرة. جاءنا في حالة تضعضع شديد وشرع يشكو كراهيته للعمل وانه فقد كل ارادة في الحياة والعمل . قال لنا انه يريد ان يتزوج وقد وقع اختياره على فتاة وخطبها ولكنه ينظر الى المستقبل نظر الحذر والاكتئاب . فهو يشكو غيرة قاتلة ويخشى ان تفسخ الخطبة . وتعليله لاسباب الاكتئاب والغيرة واليأس ليست من الوجاهة بحيث تقوم عذراً له . وما دامت الفتاة التي وقع اختياره عليها لم تأت امراً تلام عليه فقصته جملته في نظرنا موضوعاً للشك . فهو واحد من تلك الطائفة من الناس الذين ينشئون روابط ود مع الغير ولكن بمجرد قيام العلاقة الجديدة تتولد عندهم عواطف عدائية تقضي على هذه الروابط

وهذا ما عرفناه من حياته الماضية : اننا نطلب الى الذين يشكون الينا متاعبهم ان يقصوا علينا اول تذكاراتهم في الطفولة فهذه التذكارات لها قيمة كبيرة. واليك اول تذكارات هذا المريض : يذكر وهو في الرابعة من عمره ان والدته كانت في سوق كبيرة وكان معه اخوه الاصغر . وفي ساعة اشتداد الزحام تحولت الام ورفعت الابن الاكبر وهو صاحب هذه القصة — الى كتفها . ولكنها بعدئذ بقليل تبينت خطأها فأنزلته الى الارض وأخذت

الاصغر . ولما كان الزحام شديداً فقد لاقى صعوبة في اللحاق بأمه وهو ممسك بيدها

وفي هذه القصة تبيين علة هذا الرجل . فهو مصاب بآفة الغيرة ولا يتحمل ان يرى انساناً غيره ينال حظوة او تفضيلاً هو اولى به. فشكلته وهو في الرابعة تعود انيه وهو في الثلاثين. فلما كشفنا له عن الرابطة التي تربط طرفي حياته اظهر دهشته ولكنه عرف ان هناك علاقة اكيدة بين ذلك المؤثر الذي انطبع على نفسه وهو طفل وبين مشكلته وهو رجل

فالعوامل التي تخلق الغاية او تحددها تكون غالباً في ايام الطفولة الاولى . ولو روقب كل طفل مراقبة علمية لتبين من سلوكه اتخاذه اسلوباً فنياً للمشاكل التي تعترضه. ان في نفسه في هذا الطور من العمر تكون اثبت المبادىء . والباحثون الذين يقولون ان صفات الرجل ملحوظة في الطفل لا يبعدون كثيراً عن تقرير الحقيقة . وهذا اساس المذهب الذي يقول ان الاخلاق تورث ولكن فكرة توريث الاخلاق فكرة ضارة بالتربية لانها تغل ايدي المربين وتشل مجهوداتهم لانه اذا كانت الطبيعة هي المسؤولة اولاً وآخراً فأية حيلة للتربية ؟ ! فاذا سادت هذه الفكرة عطلت عمل التربية وقضت عليها

ننتقل الآن الى تقرير العوامل التي تحدد مركز الطفل وسط الجماعة. فالطفل وهو مقبل على المجتمع يواجه حقيقة الحياة وهي انه قد اقبل على عالم يعطي ويأخذ. عالم يتطلب الخضوع لانظمته لكي تكون الحياة ممكنة وسعيدة. فيستدرج على غرائزه الارتباك والحيرة لمواجهته صعوبات لا قبل له بها فينطبع في نفسه في ايامه الاولى ان الذين يحوطونه برعايتهم قادرون على التسلط على الاشياء التي تحيط بهما كثر منه. فالرغبة في القوة تنبت في نفس الطفل في هذا الوقت. وتملكه ارادة قوية ليبسط قوته على الذين حوله — رغم تفوقهم قوة — فيجدهم طوع رغباته وعونه في كل شيء . وهنا يبدو لكل طفل ان لا بد له ان يختار واحدة من اثنتين : اما ان يريد في نفسه القوة لكي يكون كفوءاً للوسط الذي يحوطه او ان يستغل ضعفه لمصلحته . فهذا الاختيار وأثره العميق في كل نفس ملحوظ دائماً في سائر اطوار الحياة .

وهنا تتخذ هذه الاختيارات شكلاً معيناً وفي هذا الطور تخلق الانواع الخلقية الثابتة. فاذ يأخذ بعض الاطفال في الاستزادة من القوة يتخذ آخرون ضعفهم اداة لاستغلال القوة والنفوذ. وهؤلاء يعملون على اظهار ضعفهم وعجزهم في اشكال كثيرة . ولا يصعب على اي انسان ان يضع كل طفل يقابله في ناحية من هاتين الطائفتين . وكل طائفة هي وليدة الوسط الذي وجدت فيه

وأساس كل تربية او تعليم هو هذا : ان يعوض الطفل عن عجزه وضعفه الطبيعيين . فالنقص في الانسان هو الحافز له لاظهار صفات التفوق والظهور . ومركز الاطفال الذين يجيئون للعالم وبهم نقص او ضعف في اعضائهم الجسمية اشد صعوبة لان هذا النقص

يزيد في الصعوبات التي تواجههم فيتلوّن نظرهم الى الحياة بلون الكراهية والمقت ويبدو العالم امامهم كأنه موطن عداء دائم . ومما لم تعمل التربية على تصحيح هذه المغالطة التي تنسب الى عقل الطفل في دور تكوينه فانه ينشأ والكراهية والحقد سلاحه في الحياة

والصعوبات التي تواجه الاطفال لا تنشأ عن نقص جسماني فقط بل تنشأ ايضاً عن تحميل الطفل اكثر مما يطيق من الواجبات ومطالبته بأكثر مما يستطيع فتتضاعف مصاعبهُ. فالطفل الذي يريد ان يتزل على حكم الوسط ويلائم بين نفسه وبين ما حوله تفاجئهُ صعوبات لا يستطيع مغالبتها . يحدث هذا غالباً في كل وسط يسوده التشاؤم الذي ينتقل الى الطفل بسهولة

والصعوبات امام الاطفال تختلف فيهم الشعور الاجتماعي او تشوهه هذا الشعور وتفسده. وهذه الصعوبات على نوعين : صعوبات الوسط الطبيعي من جهة الاحوال الاقتصادية او الظروف الاجتماعية والجنسية والعائلية . ثم الصعوبات التي تنشأ عن نقص جسماني . والحضارة الحالية هي حضارة تقوم على التمتع بأعضاء جسمية صحيحة وتامة التكوين فالطفل الذي يتنابه نقص جسماني سيواجه صعوبات الحياة وسيعجز عن تنظيمها

وهذا الصنف من الاطفال هو الذي يبطىء في الكلام عن الوقت المعتاد . او الذي يبطىء في المشي . او المصاب بأية عاهة تعوقه عن الحركة . او من الذين يصابون بالبطء والخمول لان مجموعهم العصبي لم يتم تكوينه . فهذا الصنف من الاطفال يواجه العالم وهو مثقل بعبء من الارزاء الجسمية والنفسية . وهؤلاء الاطفال يكونون ابداً مصابين بالكآبة والحزن. وتنمو فيهم غرائز سوء الظن والشكوك . وهم ينظرون الى الجانب المظلم من الحياة اكثر من نظرهم الى الجانب المنير . فيبالغون في تصوير مصاعبهم . ويشتبكون مع الحياة في حرب مستمرة . ويطالبون الوسط الذي يعيشون فيه باكثر مما يحق لهم لانهم يخطئون في تقدير علاقاتهم بالغير وتكون افكارهم وتصوراتهم وقفاً على انفسهم وبذلك ينشرون حولهم شبكة من الاغلاط وبذلك يزيدون مصاعبهم بدلاً من تخفيفها

ومن هذا القبيل اولئك الذين لا يتمتعون بعطف والديهم الى الحد الواجب التمتع به وهؤلاء يصابون بآفة نفسية خطيرة تموت فيهم عاطفة الحنو والحب ويصعب جداً ان تجعل مثل هؤلاء الاطفال اذا كبروا ان يشعروا بشيء من الشعور الرقيق

وهذه النتيجة عينها يجلبها سخفاء المعلمين . وأهل التربية . والجهلاء من الاهلين الذين يسخرون من كل شعور رقيق . ويحاولون ان يظهروا لاطفالهم ان اظهار شعور الحنو شيء سخيف لا يليق . ابحث عن امثال هؤلاء الاطفال بين الذين وجدوا في وسط سخر منهم وهزأ من طفولتهم . فاذا وجد طفل عومل بسخرية فانهُ يجتهد ان يخفي في

نفسه كل شعور طيب او عاطفة رقيقة . ومثل هذه التربية الوحشية تنزع من نفوس هؤلاء الصغار كل احساس بعاطفة فيزوي الطفل ويأخذ في العزلة عن الناس وبهذا يقطع شيئاً فشيئاً علاقاته بالوسط الذي يعيش فيه. وقد يحدث ان شخصاً في هذا الوسط ينشيء مع الذين نشأوا مثله علاقة ود ومصافاة فسرعان ما تحكم اواصر صداقة متينة جداً. وهذا يعلل ما نجده من بعض الافراد الذين لا يمكن ان تمتد علاقاتهم مع الغير الا الى فرد واحد

والتربية التي تكون مصحوبة بكثير من العطف والحنو الطبيعي تنتج هذه النتائج نفسها — نتائج افساد الشعور وقتل العاطفة بالسخرية منها . فالطفل المدلل — كالطفل المحروم من العطف — كلاهما يجاهد أمام صعوبات متماثلة . ينشأ الطفل وتنشأ معهُ عواطف حب مفرط نحو شخص او اشخاص فيتكوَّن الاعتقاد ان الابتعاد عن هذا الوسط غير ممكن وبذلك يفقد مثل هذا الشخص التقدير الصحيح للاشياء والحوادث

ومما لا شك فيه ان مستقبل مثل هذا الطفل عرضة للتلف بسبب هذا التدريب السيء لان الحياة في اذهان هؤلاء الاطفال لا يكون لها قيمة الا في النزاع للفوز بعطف الآخرين اما بوسائل شريفة او وسائل . والطفل لا يتورع عن استخدام كل وسيلة في هذا السبيل . بل ان هذا الطفل يعمد الى دفع اخوته الى ارتكاب اعمال سيئة ولا غرض له الا الظهور امام والديه بمظهر الطيب المستقيم لتم الموازنة ويظفر بالعطف الذي ينشده ، بل هو يلجأ الى الكذب او الى ارتكاب الاعمال السيئة ولا غرض له الا ان يمثل والداهُ لامره لانهُ يجد في هذا الاهتمام ارضاء لعواطفه

ومن طراز الاطفال المدللين نجد الاطفال الذين جاءوا الدنيا ووجدوا كل صعوبة قد ازيلت امامهم فهؤلاء ينشأون ولا قدرة لهم على مشاركة احد في تحمل مسؤولية او مواجهة صعوبة لانهم حرموا فرصة مواجهة الصعوبات والتغلب عليها . فمتى تركوا عائلاتهم حيثما كانوا يلاقون معاملة خاصة الى حيث يقابلون العالم ويتعرضون لتجارب الحياة فانهم حتماً يصابون بالفشل لانهم لا يجدون الاشخاص الذين يرفعون عنهم التبعات التي اعفوا منها في صغرهم . والعزلة ايضاً تكون من نصيب الاطفال الذين ينشأون نشأة شديدة التدقيق مفرطة في تكاليفها . فالحياة لا تكون ابداً طيبة لهم لانهم ينتظرون الصعوبات في كل جهة فإنهم يتقبلون كل صعوبات الحياة مهما كانت بشيء من التسليم والسكون او يلاقونها ملاقاة ابطال الالعاب الرياضية الذين يندفعون الى تحقيق اغراضهم بكل ما اوتوا من قوة وعدم مبالاة

والصفة الغالبة على كل هؤلاء الاطفال هي انهم يضعون انفسهم موضع الاهتمام قبل كل شيء آخر في الحياة . فهم مشغولون بانفسهم ومن هنا تفسد فيهم غرائز تقدير العلاقات الاجتماعية تقديراً صادقاً

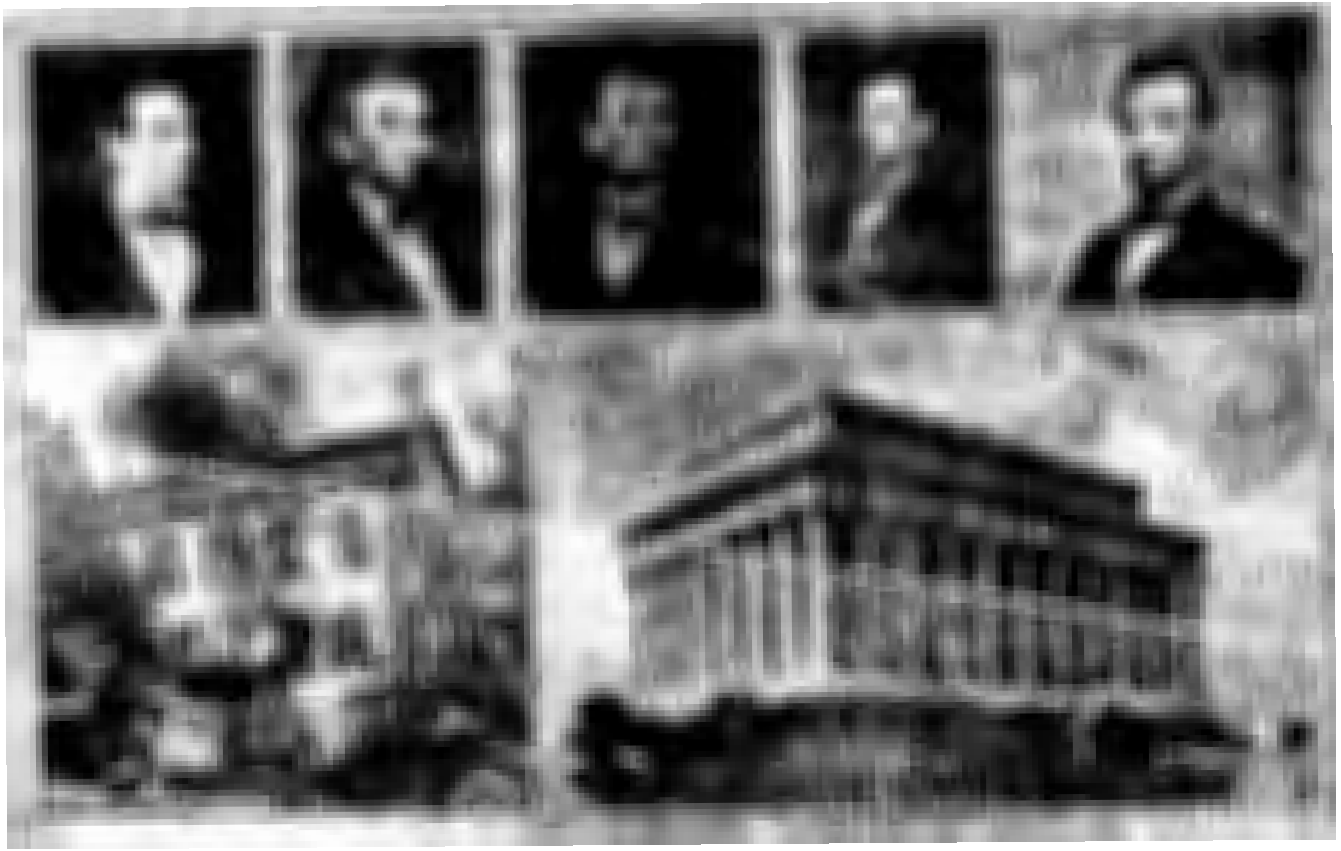

الصف الاعلى : خمس صور الرئيس لنكن . الصف الاسفل الى اليسار صورة المنزل الذي كان مملوكاً لما رشنج الرئيس . والى اليمين صورة التذكار الرائع الذي بني لهُ في واشنطن لتخليد ذكره

مقتطف اكتوبر ١٩٣٠ أمام الصفحة ٢٨١